

وتعد عملية الإعداد العقلي في غاية الأهمية في تكوين الجدية التي تناف في التشدد، فالعقلانية تجعل الإنسان يتروى ويصبر ولا يستعجل في اتخاذ القرار. كما أن معرفة دور العقل واتخاذ الجدية التي تناف في التشدد، من الأمور المهمة في الجوانب التربوية.

وهذه اللفتة التربوية في غاية الأهمية اليوم حيث تحول التعليم ومؤسساته في كثير من الأحيان إلى مواقع خلفية تعتمد فيها الحرية، وتقتل فيها روح المبادرة والإبداع والتدريب وتشكيل المهارات. فالنظام التعليمي لا ينبغي أن يكون قائماً على حفظ المعلومات وتخزينها، بل ينبغي أن يسعى إلى تشجيع المهارات التفكيرية، التحليلية والتركيبية، وتوجيه هذه المهارات باتجاه البحث الفردي، مراعيًا للفروقات الفردية، كل حسب قدراته وإمكاناته. فالتعلم ليس تحفيظاً كما أن التعلم ليس حفظاً. وإنما هو على جانبه إعمال للقدرات العقلية وكسب للزمن من أجل التمكن من المعرفة في هذا الحقل أو ذاك.

إن وقوف مؤسسات التعليم بمختلف مستوياتها عند القدرة على الحفظ والاستظهار، وقصورها عن العمليات العقلية، يفرز آثاراً سلبية منها:

- عجز الخريجين عن التفاعل والتفاهم والحوار مع أطراف المجتمع وشرائحه المختلفة. فالنقاش والتحليل والحوار يتطلب مهارات عقلية لا يمكن تفتيتها من خلال الاكتفاء بقدرة الحفظ فحسب.
- عجز الخريجين عن الاحتفاظ بهويتهم أمام التيارات الوافدة ورياح العولمة العاتية.
- عجز الخريجين عن مد الجسور بين الأصالة والمعاصرة والتفاعل بين الماضي والحاضر. (١٥)

ج العملية التعليمية
ومن الإنصاف القول بأن المؤسسات التعليمية في الغرب تقدمت تقدماً حوطلاً في ميدان دراسة القدرات العقلية ومجالات تفتيتها، وقطعت شوطاً هائلاً توظيف القدرات العقلية للمتعلمين بما يناسب الثورة العلمية والتفجر المعلوماتي لعريء المهول.

ومن الاتجاهات التربوية الحديثة في هذا، تنمية الإعداد العقلي عن طريق:
- تبني مبدأ التعلم الذاتي والتعلم المستمر، للاحقة تحديات عصر انفجار المعلومات والتطور السريع الملازم له.

- تنمية قدرة التعلم على الربط بين ما يتعلمه داخل المؤسسة التعليمية ومشكلات واقعه الحقيقي خارجها، وهو ما يعرف اليوم بالتعلم الواقعي

Authentic Learning.

ويظهر النهج الخلدوني متقدماً من خلال ملاءمته لأحدث الإسهامات التربوية في الإعداد العقلي للمتعلم، بل وسبقه لها، ولكن دون الدخول في تفصيلات كبيرة كما هو الشأن بالنسبة لعصرنا الحالي الذي تشعبت فيه التخصصات.

فقد ذهب ابن خلدون إلى أهمية الحوار والجدل والناظرة بين العلم والتعلم. فالحوار يساعد على تفتق الذهن واتساع المدارك وفك عقال اللسان الذي يكون بواسطته نقل العلم. كما اهتم ابن خلدون ببيان أدوات المعرفة كالحواس والتجربة ودورها في تنمية القدرات العقلية، كالتأمل العقلي والتجربة والمشاهدة.

بل إن ابن خلدون اهتم بتحديد مستويات العقل البشري بالتميزي والتجريبي والنظري. فليس المهم عند ابن خلدون معرفة القواعد والقوانين والاصطلاحات في حد ذاتها، وإنما المهم القدرة على استخدامها والاستفادة منها عملياً أي التطبيق. من هنا كان تفرقه بين صناعة اللغة المتمثلة في قواعدها وقوانينها واصطلاحاتها وبين ملكة اللغة.

١٥ - بتصرف كبيراً عن: ماجد عرمان الكيلاني، أهداف التربية الإسلامية في تربية الفرد، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أمريكا، ١٩٩٧م، ص ١٠٦.

كما ركز ابن خلدون على وسيلة تعلم الحساب ففي صناعته «تصرف في العدد بالضم والتفريق». وصنعة تحتاج إلى الكثير من البراهين والاستدلالات. من هذا التحليل يستنتج ابن خلدون أن الكتابة تقوي النظر العقلي، وأن الحساب يقوي العقل (العمليات الذهنية الصورية أو الشكلية أو المنطقية) لهذا يجب الاهتمام بتعليمهما^(١١).

ويمكننا التأسيس على هذا بأن كل علم أو مهارة يمكن أن تبنى القدرات العقلية لدى المتعلمين، ينبغي الاهتمام بها والحرص على تهيئتها لهم في إطار المؤسسات التعليمية المختلفة، كدراسة الحاسوب في عصرنا وغيرها من آليات حديثة.

ثانياً: استراتيجيات العملية التعليمية

الاستراتيجية الأولى: الطريقة التعليمية

نرى ابن خلدون على طريقة الباحثين والاعتماد على التعليم الكمي والتركيز على حجم المعلومات التي تتساب في أذهان المتعلمين. ويرى ابن خلدون أن التركيز ينبغي أن ينصرف إلى بناء التفكير الصحيح ولو مع علم قليل.

يقول في ذلك: «اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً، إذا كان على التدرج شيئاً فشيئاً وقليلًا قليلًا، يلقي عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب، ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال، ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى يفتنى إلى آخر الفن، وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم؛ إلا أنها جزئية وضعيفة، وغايتها أنها هيئته لفهم الفن وتحصيل مسأله. ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها، ويستوفى الشرح والبيان، ويخرج عن الإجمال، ويذكر له ما هناك من

لقد طرح ابن خلدون نماذج عملية لتكريس القدرات العقلية وتميئتها، ومن ذلك تركيزه على الاهتمام بالكتابة والحساب، بوصفها مقومات للتربية العقلية وتنمية القدرات الفكرية. ويؤكد ابن خلدون أهمية تعليم هاتين الصنعتين لكونهما مفيدتين للعقل، فالكتابة تتضمن «انتقالاً من الحروف الخطية إلى الكلمات اللغوية في الخيال؛ ومن الكلمات اللغوية في الخيال إلى المعاني التي في النفس؛ ويكون ذلك دائماً فيحصل لها ملكة الانتقال من الأدلة إلى المدلولات، وهو معنى النظر العقلي الذي يكتسب به العلوم المجهولة فتكسب بذلك ملكة من العقل تكون زيادة عقل. ويحصل به مزيد فطنة وكَيْس في الأمور، ما تعوروه من ذلك الانتقال»^(١١).

إن تكرار هذه العملية الذهنية المتضمنة في الكتابة «من الحروف الرسومية إلى منطوق الحروف الرسومية، ومن منطوق الحروف الرسومية إلى الصورة الذهنية أو المعنى، والعكس صحيح» يكون ملكة الانتقال السريع بين الدوال والمدلولات. هذه الملكة تزيد العقل فطنة وذكاء. وما طرحه ابن خلدون قبل عدة قرون، يعارب إلى حد كبير ما أشار إليه التربوي العالمي MORTIMER J. (١٧) ل ADLER وأكد في مقالاته ومؤلفاته حول تطوير فن تعليم القراءة والكتابة وقوانين ذلك وآثارها في المتعلم. ومنها قوله:

One learns to write and read only by performing these acts, but since reading and writing are intellectual arts, the habits must be formed under the discipline of rules of art; moreover, intellectual habits cannot be formed intelligently unless the rules themselves are understood (18)

(١١) - المقدمة، مصدر سابق، ج ١، ص ٤٧٩.

(١٧) - عالم أمريكي موسوعي مشهور في مجال تطوير التعليم والمنطقية. ولد عام ١٩٠٢. وتوفي عام ٢٠٠٠م. وولد من أبرز التربويين الذين كان لهم أكبر الأثر في تطوير التعليم وأصلاحه في أميركا في القرن العشرين. اشغل بالتدريس في كثير من جامعات أميركا

وعمل إدارياً فيها فيما الذي عمل كتاباته تسم بالواقعية في تناوله لتطبيقات إصلاح التعليم. عمل في تحرير ومراجعة الموسوعة البريطانية الشهيرة. ألف عدداً حائلاً من الكتب والمقالات في مجال تطوير التعليم منها: أزمة التعليم: إصلاح التعليم، اقتراح العملية الأميركية، كيف تتعلم وكيف تتعلم، كيف تقرأ كتاباً، فكرة الحرية، وغيرها كثير. انظر ترجمته في الموسوعة البريطانية على موقعها الإلكتروني.

(18) Adler, Mortimer J., "Britannica Student Encyclopedia". 2006. Encyclopedia Britannica Premium

Social - Mortimer J. Adler, THE CRISIS IN CONTEMPORARY EDUCATION, The Frontier, February, 1939, Vol ٧, No. 42, pp. 140.

ويرى ابن خلدون أن التعليم يعني توصيل الحقائق المعرفية بين طرفين، و يقف بعض الوقت عند نوعين من صيغ التوصيل: الصيغة الشفافية التي تتم مباشرة بين المعلم والمتعلم، والصيغة الكتابية التي تتم بشكل غير مباشر بينهما من خلال الكتب والمؤلفات. وهذه الصيغة هي أكثر ديوماً وانتشاراً؛ فالكتاب المنهجي أكثر دواماً وأكثر قدرة على الانتشار.

ويتخذ ابن خلدون طريقاً وسطاً إزاء الكتاب التعليمي يتميز بالمرونة، ويهتم بما يعرف اليوم بتكنولوجيا التعلم، والقدرات النفسية للمتعلم. وعلى هذا رفض ابن خلدون مفهوم الإكثار من التأليف وتحميل المناهج التعليمية المزيد من الكتب التي تعالج موضوعاً واحداً، لما يترتب عليه من إرباك ذهن الطالب وتضييع الوقت فيما لا مبرر له.

ويرقى ابن خلدون بهذا الطرح إلى المستويات الحديثة التي تفرض على مصممي المناهج ضرورة التفريق بين الضروريات والكماليات العلمية، وهو ما يعبر عنه ابن خلدون بالبسيط والمركّب، وذلك بقوله: «ثم إن الصناعات منها البسيط ومنها المركّب، والبسيط هو الذي يختص بالضروريات، والمركّب هو الذي يختص بالكماليات. والمتقدّم منها في التعليم هو البسيط، لبساطته أولاً، ولأنه مختص بالضروري الذي تتوافر الدواعي على نقله»^(٢١)

ويواصل ابن خلدون نقده لعمليات الحشو والتكديس في التعليم حيث يقول: «هذا وجه التعليم المفيد وهو - كما رأيت - إنما يحصل في ثلاثة تكرارات، وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يُخلَق ويتيسر له، وقد شاهدنا كثيراً من المتعلمين لهذا الهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفادته، ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقلّدة من العلم، وبطالبيونه بإحضار ذهنه في حلّها، ويحسبون ذلك مرناً على التعليم وصواباً فيه، ويكلفونه رعى ذلك وتحصيله،

(٢١) - المقدمة، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٠٠.

لاف ووجهه، إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجد ملكته. ثم يرجع به وقد شدّا يترك عويصاً ولا مُتْهُماً ولا مغلفاً إلا وضحّه وفتح له مقله؛ فيخلص من الفن استولى على ملكته»^(٢٠) من هنا كان اهتمامه بالتركيز على الفهم وإعمال

من وتشغيل قوى المخيلة، أكثر من شحن الذاكرة.

وواقع التعليم عندنا اليوم يقوم في كثير من الأحيان على التكديس والحشو تقليد والدوران في عقل السابق، بعيداً عن تنمية روح الإبداع والكشف والملاحظة تجرية والتبصر واكتشاف الخطأ وبناء الشخصية الاستقلالية. فالتعليم عندنا محور حول التقنين والحفظ وشحن الذاكرة بعيداً عن التفكير والمقارنة والتميز تنمية التفكير. على حين أن الذاكرة والحفظ أولى وظائف العقل، والتفكير لقايسة والمقارنة أعلى مراتب التفكير، فالإصرار على الحفظ والذاكرة يعني توقف عند أولى مراتب العقل، وعائثاً يساهم في طرد أصحاب العقل والتفكير. أمر الذي يستدعي أهمية مراجعة كافة الوسائل التعليمية والقررات ذات الصبغة استظهارية في محاولة لحل هذه الأزمة تدريجياً.

لاستراتيجية الثانية: محتوى المقرر التعليمي

يعتبر ابن خلدون التعليم من (جملة الصناعات) ، وهو فن لا بد من الإلمام أصوله وقواعده؛ لكي يتمكن المعلم الذي يمارسه من تأدية مهمته على الوجه المطلوب.

وابن خلدون يعرف كيف يرتبط بين ما يبلغه فن التعليم من مستوى وبين ليئية الحضارية التي ينشط فيها. فالعلاقة بينهما طردية، وحينما بلغت جماعة ما شأواً متقدماً في المضمار الحضاري تقدم معها فن التعليم ونفق سوقه.

